الإستقامة بين الأمل الكبير والخوف من الجليل

(خطبة الجمعة للشّيخ عبد الحق شطّاب بمسجد الشّيخ أحمد حفيظ رحمه الله

اليوم 13 من ذي الحجّة 1434هـــ الموافق لـــ 18 أكتوبر 2013م)

الخطبة الأولى:

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفُسِنا ومن سيِّئات أعمالِنا، من يهدِه الله فهو المُهتد، ومن يُضلل فلن تجِد له وليًّا مرشدًا،

أشهد أن لا إله إلاّ الله وحدَه لا شريك له، وأشهد أنّ مُحمّدًا عبدُه ورسوله،

" يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿01﴾ "سورة النّساء.

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿102﴾ "سورة آل عمران.

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ﴿70﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيمًا ﴿71﴾ "**سورة الأحزاب.**

ألا وإنّ أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهَدْيِ هَدْيُ محمّدٍ – صلّى الله عليه وآله وسلّم –،

وشرّ الأمور مُحدثاتها، وكلّ محدثةٍ بدعةٌ، وكلّ بدعةٍ ضلالةٌ، أعاذنا الله من الزّيغ والضّلال،

معاشر الإخوة الكرام، حديثنا في هذه الجمعة المباركة، حديثٌ حول:

الإستقامة بين الأمل الكبير والخوف من الجليل

استوقفني هذا الأسبوع، قصّة شابٍّ جزائريٍّ توفِّيَ، وختم له بحسن الخاتمة على ما يظهر، ويبدو وأنّ الرّجل كان مطيعًا لوالديه، فلم يحرمه الله من رؤية أبيه العام الماضي، حينما رآه في ديار الغربة قبل أن يتوفّى أبوه، وكذا أمّه الّتي جاء لرؤيتها بعد عشرين عامًا، حينما حصل على أوراق الإقامة، الرّجل صام معنا يوم عرفة، وكلّف أحد المطاعم في حي بلكور بإفطار الصّائمين الفقراء على حسابه في المطعم، ثمّ قبل صلاة العشاء وهو يستعدّ للصّلاة وافته المنيّة.

والحمد لله الّذي ختم له بخاتمة خيرٍ، صيامٌ وإحسانٌ إلى الوالدين والفقراء.

هذه القصّة سنقف معها محطّاتٌ:

كثيرٌ من الشّباب يؤخّر التّوبة، ويؤجّل الإستقامة بسبب طول الأمل، يظنّ أنّه سيعمّر كثيرًا، فيقول: (**لّما أتزوّج أتوب**)، وقد تخطفه الموت على حين غفلةٍ منه، والأخرى تقول لك: (**حينما أُخْطَبُ وأعقد، أتوب عن العلاقات المشبوهة مع الرّجال**).

ونسي هؤلاء وأولئك أنّ الأمل قد يدفع بهم إلى الهلاك.

إنّ الشّيطان لّما أغرى آدم عليه السّلام ليأكل من الشّجرة الّتي نُهِيَ عنها. وعد الشّيطان آدم أنّه لو أكل من هذه الشّجرة سيخلد في الجنّة، وملكه لا يزول ولا يبلى. قال تعالى:

" . . . قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى (120) "

سورة طه.

أو قوله تعالى:

" . . . وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (20) " **سورة الأعراف.**

فالشّيطان يغري الإنسان بالأمل الكبير حتّى لا يتوب، حتّى يستمرّ في المعصيّة والغيّ.

وعليه، إخوتي الكرام، فلنأخذ نفوسنا بالإحتياط، ذلك لأنّنا لا ندري متى نرحل من هذه الحياة.

" . . . فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (34) "

سورة الأعراف.

فحريٌّ بنا أن نحتاط فَنُعَجِّلُ التّوبة، وَنُعَجِّلُ الإستقامة، وَنُعَجِّلُ الإستدراك قبل فوات الأوان، ذلك لأنّنا لا نعلم الغيْب، ولا نعلم وقت رحيلنا عن هذا العالم، فَرُبَّ مُؤْمِلٍ لا يُؤْمَلْ، قال تعالى على لسان نبيّه:

" . . . وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (188) " **سورة الأعراف.**

أتدرون كيف نُعالج طول الأمل الّذي يعطّل توبتنا واستقامتنا؟.

نُعالج طول الأمل بالخوف من الجليل، وترغيب النّفس في نعيم المنّان الكريم.

الّذي منع هابيل من قتل أخيه، هو خوفه من الرّحمٰن الرّحيم:

" لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (28) " **سورة المائدة.**

" وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (42) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (43) " **سورة إبراهيم.**

فليعلم من طال أمله وفسد عمله أنّ الله ليس بغافلٍ عمّا يعمل، وسينال جزاؤه:

" **وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا (13) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (14)** " **سورة الإسراء.**

نُعالج الأمل الكبير بذكر نعيم المنّان الكريم، فَنُعَجِّلُ التّوبة والإستقامة، لأنّ ما يمتّعنا من الشّهوات لا يساوي شيئًا أمام نعيم الجنّات:

" **مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ . . . (15)** " **سورة محمّد.**

واستعينوا بذكر هادم اللّذات، والمشي في الجنائز، فإنّها تذكّر الآخرة.

أقول ما تسمعون، وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه، إنّه هو الغفور الرّحيم.

الخطبة الثّانية:

الحمد لله حمدًا كثيرًا مباركًا، كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، أحمده على نعمه، وأشكره على فضله وامتنانه، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمّدًا عبده ورسوله،

معاشر المسلمين،

تعدّدت أسباب الموت والموت واحدٌ، وإنّما الّذي يقظّ مضاجع العقلاء، هي حال المسلم عند الوفاة، وبما يختم له بحُسْنِ الخواتيم أم بِسُوئِهَا، هو الّذي ينبغي أن يشغل بالنا، خاصّةً حينما تقرأ الحديث:

روى البخاري عن أبي عبد الرّحمن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: { **حدّثه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، قال: (فوالله إنّ أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنّة، حتّى ما يكون بينه وبينها ذراعٌ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النّار فيدخلها، وإنّ أحدكم ليعمل بعمل أهل النّار، حتّى ما يكون بينه وبينها ذراعٌ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنّة فيدخلها)** }.

وقال ابن القيّم في الفوائد (صفحة 163):

(وأمّا كَوْنُ الرّجل – يعمل بعمل أهل الجنّة، حتّى ما يكون بينه وبينها إلاّ ذراعٌ، فيسبق عليه الكتاب – فإنّ هذا عمل أهل الجنّة فيما يظهر للنّاس، ولو كان عملاً صالحًا مقبولاً، قد أحبّه الله وَرَضِيَهُ ولم يبطله).

قال ابن رجب: (**فيما يبدو للنّاس**)، وفي حديث قاتل نفسه، فيه إشارةٌ إلى أنّ باطن الأمر يكون بخلاف ذلك.

فما السّبيل للنّجاة من سوء الخاتمة؟.

أوّلها الإخلاص، وكيف لا يكون غياب الإخلاص سبب سوء الخاتمة، وصاحبه لم يُقْبَلْ له عملٌ واحدٌ قَطٌّ، في حين له سيّئاتٌ، بل إنّ أعماله الّتي تبدو صالحةً كسب منها سيّئاتٍ، لأنّها لم تكن لوجه الله تعالى.

قال السّلف:

(صلاح الأعمال بصلاح القلوب، وصلاح القلوب بصلاح النّيّات، ومن صَفَّى صُفِّيَ له، ومن خَلَّطَ خُلِّطَ له).

أمّا السّبيل الثّاني لِحُسْنِ الخاتمة عدم الإصرار على المعصيّة، ومن أصرّ عليها كُتِبَ له بسوء الخواتيم.

" إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا (137) " سورة النّساء.

هذا حال المُصِرِّين على المعاصي، يُخْتَمُ لهم بسوء الخواتيم.

الأمر الثّالث، التّعمّد في مخالفة الكتاب والسّنّة إرضاءاً للهوى وتحصيلاً للمنافع:

" وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (115) " سورة النّساء.

اللّهمّ أهدِنا فيمن هديْت، وعافِنا فيمن عافيْت، وقِنا شرّ ما قضيْت،

اللّهمّ لا تَدَعْ لنا في مَقامِنا هذا ذنبًا إلاّ غفرته، ولا دَيْـــنـــًا إلاّ قضيْته، ولا مريضًا إلاّ شفيْته، ولا حاجةً من حوائج الدّنيا أو الآخرة لك فيها رضًا ولنا فيها صلاحاً إلاّ قَضيْتها لنا ويَسَّرتَها لنا، يا أرحم الرّاحمين،

اللّهم إنّا نسألك فِعل الخَيْرات، وتَرْك المنكرات، وحُبّ المساكين، وإذا أردت بِقَوْمٍ فِتنةً، فتَوَفَّنا غير فاتنين ولامفتونين،

اللّهمّ إنّا نسألك حُبَّك وحبّ من أحبّك، وحبّ كلّ عملٍ يُقرِّبنا إلى حبّك،

اللّهمّ اجعل خير أعمالنا خواتمها، وخير أيّامنا يوم لِقاك،

اللّهمّ لا تأخذنا على حين غِرّةٍ، ولا على حين غفلةٍ،

اللّهمّ إنّك عفوٌّ تحبّ العفو فاعف عنّا،

اللّهمّ انصر الإسلام والمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، واخذُل ودمِّر أعداء الدّين في مشارق الأرض ومغاربها،

اللّهمّ فرّج كربة ومحنة السّوريّين،

اللّهمّ فرّج كربة ومحنة المصريّين،

إنّك على كلّ شيءٍ قديرٌ، وبالإجابة جديرٌ، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين، سبحانك اللّهمّ وبحمدك، أشهد أن لا إلـــٰـه إلاّ أنت، نستغفرك ونتوب إليك.